أما الباعث على تأليفها، فكان بناء على طلب أبناء أخي -أبي العلاء- وإلحاحهم لكي يرفع مظلمتهم إلى والي -حلب- بسبب أرض لهم قاحلة، رتب عليها الجباة مالا تستحق من ضريبة، فهي بلغة عصرنا -عرض حال- لا أكثر، يطلب فيه مماليه رفع حيف أصاب أقاربه.

ولم يستخدم -أبو العلاء- في كتابة شكواه، الأسلوب المباشر، بل صاغها على ألسنة الحيوانات على شكل تمثيلية بطلها -الشاحج- أو البغل الذي يكدح في الأرض القاحلة التي لا خير فيها.

ويتخيل -أبو العلاء- "الشاحج" وقد أنطقه الله تعالى بقدرته، وهاهو ذا يجأر بشكواه.

موضوع الرسالة:

ينسحب -أبو العلاء- بلطف، ويترك المسرح للشاحج، وهو معصوب العينين منطوٍ على همومه وهواجسه، ومن بعيد يسمع صهيل فرس مايلبث أن يقترب من الشاحج ويترجل عنه فارس ليرد الماء ويستريح قليلاً قبل متابعة السفر، وعندئذٍ يبدأ الحوار بين "الصاهل" "الحصان" و"الشاحج" "البغل" ويطلب "الشاحج" من خاله "الصاهل" أن يحمل له شكواه المنظومة شعراً إلى "حلب" بعد أن عرف أنه في طريقه إليها.

ولكن "الصاهل" يأنف من هذه الخؤولة المهينة التي يمت بها إليه البغل، فيوسعه تحقيراً وسخرية، ويتطور الجدل بينهما إلى خصومة حادة، يقترح الصاهل أن يحتكما فيها إلى حمامة كانت تحط على غصن قريب...

ويرفض "الشاحج" تحكيم الحمامة، وهي المشهورة بالكذب والحمق والخفة، ويقترح أن يكون الحكم بعيراً في إبل وردت الماء هناك.

وتغتاظ الحمامة مما سمعت من قدح الشاحج فيها، فتسرع إلى الجمل وتلقي عليه القصة،مع قلب كلام البغل فيها وفي الجمل، فيندفع الجمل مهتاجاً فيهجم على الشاحج في حنق مسعور.

ثم تتكشف مكيدة الحمامة، ويعتذر "أبو أيوب" "الجمل" للشاحج ويتطوع لحمل شكواه إلى الحضرة العالية، التي عدل صاحبها عن الشعر إلى نوع آخر من الكلام، لم يفهم"أبو أيوب" منه شيئاً فيظن العته والمس بالشاحج.

أما أخبار مدينة -حلب- فيكلف الشاحج بها "الثعلب" ويطلب منه أن